إبـــنى !

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلانى

لا أدرى لماذا ترجع بى الذاكرة إلى الوراء ، إلى يوم فى شارع ضريح الملك فى الأعظمية حيث تقوم « دار لنا بمدرجة الريح » . فى أمسية هادئة ساجية وقد جلست أنظر فى شمعتين اثنتين هما رمز العامين الأولين من عمر « ابنى » ولا أدرى لماذا تستقيم لى نظرة الوراء وكيف لا أذكر إلا ذلك العيد الذى احتفلت به بين وفاة الوالد وميلاد الولد : شمعتان اثنتان فى ضوئهما الخافت المتراقص ... وقرص من الكعك صغير ، وطفل غرير يزدهيه منظر الشمعتين يريد اطفاءهما ... وأم تنظر كيف تسير فى وادى الزمن مع وحيدها متوجسة متسائلة : ترى كم عيداً تستقبل هى وهو ؟ وعند أية شمعة من شموع حياته تخبو شمعة حياتها ؟ ... هكذا كانت ترتسم الصورة فى ذاكرتى : لون من الليل فاحم ولون مغمور بضوء الشمعتين البرتقالى تخالطه الدكنة فى أكثر حواشيه . . . والصمت يحيط بالمكان والمناسبة والنفوس ، فلا موسيقى ولا مهنئون ، وقد انتهى العيد بأن نام « ابنى » فى أول يوم من عامه الثالث من عمره المديد السعيد .

وما أدرى لماذا أستشعر الكآبة العميقة من هذه الصورة فأجاوزها إلى سابقتها وإلى لاحقتها فأنظر إلى اللاحقة .. لا شمع ولا فرح وإنما هى صورة فى القطار يطوى الشقة الشاسعة ... إلى مصر ... يطويها قليلا حتى تنتهى .. وينام « ابنى » فى أول يوم من عامه الرابع من عمره المديد السعيد ! فأحس لذعة فى نفسى ، ولذعة فى هيكلى ، فأشكو الأخرى شكاة مؤزرة بالأولى مؤكدة بها . ثم أشكو الصداع ثم أتخاذل فينظر إلى « ابنى » وأنظر إليه ...ثم يأتى الطبيب يفصل فى شكاتى الأولى بأن أسكن دار الحميات زمناً .. وأن يحاط بى فلا أرى « ابنى » ولا ألمسه ولا أقوم على خدمته أبداً .

وقال قلبى : ودعى أيتها الأم طفلا ، وقال الشيطان ... إلى

الوصول إلى درجة من النظام والرقى والضبط والربط لا يمكن أن تحتملها طاقة الناس فى الشرق الذى بدأ يستيقظ من سنة الكرى عن قرب ويفتح حديثاً عينيه إلى النور . هنا تتلاقى الدوافع النفسية للوصول إلى المثل العليا مع قوة الارادة والشكيمة التى يحملها سعد الله الجابرى ، وتواجه كلها الواقع المؤلم فيبدو أحياناً مندفعاً لا تلاحقه أفكار الناس ولن تقدر أن تلاحقه فهو يحمل قبساً من نور الحقيقة ومن نور الالهام ويشعر بالأخطار القادمة ويريد أن يدعم الأساس ويقوى البنيان وهم تشغلهم حوادث اليوم وتلهيهم مشاكل الساعة فلا يرون ما يراه ولا يتبعونه فى خطواته ، لذلك أصبح الرجل الذى يجاهد ويكافح ولكن فى الطريق الذى اختاره هو لنفسه وأفرغ عليه المبادىء والمقاييس التى فرضها هو على نفسه ، وجعل منها قواعد وحدودا لم يكن يحيد عنها ولا يخرج منها . لما أراد أن يأخذها الناس ويقيدوا أنفسهم بها ، رأوا أنه يحملهم فوق طبيعة البشر وفوق طاقتهم .

إن الذين انتقدوا سعد الله الجابرى فى حياته لم يفهموا هذه الناحية من نفسه الكبيرة ولو فهموها لأدركوا أى خسارة تحملها الآن سورية والبلاد العربية باختفاء شخصية نافذة مخلصة ، تمتاز بحماستها الهائلة للفكرة العامة واندفاعها لأجل المصلحة العامة

لقد كان سعد الله من بناة الاستقلال السورى ومن الذين جاهدوا فوصلوا إلى مراكز القيادة ، وكانت الدنيا بين أيديهم فاذا هم يخرجون منها وهم أقل ثروة مما كانوا قبل دخولهم الحياة العامة

كثيراً ما كانت تخونه أعصابه ، ولكنى لم أعرف لحظة واحدة خانه فيها إيمانه . كثيراً ما تحمس وانفعل ولكن كثيراً ما تحمل لأن قلبه كان كبيراً وعامراً بالدوافع الكبرى : فهو قد حقق مع زملائه لوطنه ما رسمه فى مخيلته من حرية واستقلال ، وكان يؤمل أن ينقل أمته إلى المكانة التى كان يحلم بها. حقق الله آماله من بعده

إلى أعزى الشعب السورى الشقيق وفخامة رئيس الجمهورية ودولة جميل بك مردم وزملاء الفقيد وآل الجابرى وأعد فقده خسارة للعرب ولمصر التى أحبته وأنزلته فى قلبها لما ظهر من حبه لها ولأهلها ، أسمى منزلة وأكرامها .

أحمد رمزى

غير لقاء ، وقال آخرون عرفوا بالرأفة والحنان : سنكفل الطفل ونرعاه ، فنذريه ممنا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

وتجاوبت لغة التشاؤم فى نفسى المثقلة بذكرياتها ، واشتجرت فى قلبى شجرة طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، ولم يبق فى حسى إلا بقية الآية : ان ليحزنني أن تذهبوا به ... !

أجل ! . إنى ليحزنني أن يذهبوا به .. وإن كان القوم ذوى أطفال ، وإن كانوا ذوى نفوس كريمة وطبع سمح جميل ... ! وأعود من هذا إلى ما سيحس هو به فأقول :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه قبيل الكرى عيناه تنهملان

ولقد ذهبوا به فى رأد الضحى بجدائله التى عقصتها له بيدى المتخاذلتين وقلبى المستخذى الخفاق بعد عينى المحمومتين بالدمعة المهراقة التى لا ترقأ . وأضحى كل ألم فى كل مفصل له بولدى صلة ؛ فأنا آلم برأسى ألم رأس وألم حس بفراق « ابنى » ؛ وأنا آلم بحسى ألما يكبر عن الألم المألوف لأنه مزيج من ألم الحس المثخن وألم الأم تريد ابنها ترى فيه آلامها الكبار السابقة لينحط هذا الألم بفضل المقارنة إلى ما يجوز استمراؤه وقبوله . فهل أكون عقصت شعره لآخر مرة ؟

وتعظم هذه الآلام وتبسق وتعد ظلالها فتساقط على نفسى الحالمة بذكرياتها كسفاً من الليل المفعم بأعاصير الكدر ، وتتزلزل قواعد الصبر فى نفسى وتلق بها الريح فى مكان سحيق فأرتد خاسئة الطرف ذاوية ، وأضؤل وأضوى .

وهنا تنفتح عينى على غير إرادة ، وأرفع كفى إلى رأسى المسجور ، لأنى أرى فى ضمق هذا وبؤسى هذا .. ويأسى هذا « ابنى » الذى حملوه مع الحقائب إلى دار الكرام الذين قالوا ذريه ممنا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ... وأدير رأسى رويداً رويداً لأسكب على الوسادة دموعاً ثقالا بعد اليوم ، لا حراراً كما اصطلح عليها ، دموعاً ثقالا من ذوب القلب الحنون تنقض البؤبؤ السقيم فأطرحها على الوسادة طرحاً ، وأراها تتدحرج قطرة قطرة ... وتفرغ عينى منها فأستجلى صورة ابنى على مقربة من رأسى . ثم يعتلج فى نفسى تساؤل هين رقيق . رقته الرض كثيراً وأمسك عليه الاجابة ، ترى علام خلق الدمع؟ لأجل أن يضفى على ألما جديداً فأرى من خلال ودقه صورة ابنى متراقصة وأراها متحركة وأراها ناطقة بدون كلام ، وأراها ضاحكة تهون على الصعب ، وأراها باكية تشاركنى الخطب وتقاسمنى الكرب . ولقد أرانى الدمع صورة ابنى من مشتقات معانيه يرتم جبينه وشفتيه شروعاً فى جهشة ... وأرانى صورة أمى بجانبه صابرة متجلدة كشأنها ، وأرانى أمسى داكناً إلا شمتين ، وأرانى غدى فى لون الضباب ... ولون الضباب كلون الكفن ! !

ولقد يطلب المريض فى فرش الضنى أن يرقب مواكب المنى تمر مستأنية فى وخدها وإرقالها ، مثقلة بأوقارها وأحمالها ... تقبل من الأفق الأيسر وتذوب فى الأفق الأيمن مارة عبر جسمه المسجى الضعيف تحدو حداتها فيهيم طرفه الفاتر ونظره الغائر فى الحدوج ويستلهم الأحمال ويتنخل ما فيها لأيامه الحسان المقبلة ، وأنا .. أرقب هذه المواكب زاخرة بأمانيها ، ملأى بما فيها ، يقودها الدمرداش من أفق العباسية إلى أفق الزمالك — حيث ابنى — فلا أرى ما يستفزنى فى الأفانين إلا ركوب يستوى على متنه شيء يشع فيمسك الرمق ، يدنو فى أخريات الموكب فاذا هو طفل بسام الثغر مصفف الشعر هو « ابنى » فأصيح وأريد اللحاق فيقال : لا : أنت رهينة التيفوئيد . أجل لقد ذهب الموكب صداحاً لين اللحن عبق الخطو والحداء . وقد رأيت ابنى فيه بسام الثغر مصفف الشعر ... فأبسم لنفسى وأهزأ من دموعى وأجد القدرة على الشفاء . أين الدكتور الدمرداش أشكره على ما أتاح ، وأين زوجى أسأله عن ابنى فيقص على الأمر فأرتاح .

لقد قيل لى منذ أيام إن — ابنى — عنى سأل ، ولا بد أنه ألقى سؤاله ذلك خجلا أحمر الوجنتين ، خائب الشفتين ، فأجابوه بأن أمه فى المدرسة . فما أحسن الاجابة ! انني فى مدرسة الصبر ، أتعلم الموت كيف يهون ، وفراق الابن كيف يكون . أما أن ابنى أحمر الوجنتين خجلا ، خائب الشفتين أملا ، فلك الله يا منايَ ، ولى . ما ودعتك أمك وما قلت ، ولا نسيتك أمك ولا سلت .

منيرة الكيلوفى